٧ ــ عصر النهضة والتحيّز في كتابة التاريخ

بحث مستخلَص من كتابات الأستاذ منير شفيق

أ. نادية رفعت

الحرية، المساواة، الإخاء، العقل، العلم، التنوير.. كل هذه مصطلحات جميلة وجذابة، لن يتردد أي إنسان في التأثر بها والانجذاب إليها، وإذا رجعنا إلى كتب التاريخ سواء في الشرق أو الغرب، أو في بلادنا العربية الإسلامية سنجد أن هذه المصطلحات ارتبطت إلى حد كبير بما عرف «بعصر النهضة» وهي الفترة الممتدة من بداية القرن السادس عشر وما بعده، وما تضمنته من تغييرات وتحولات اجتماعية وسياسية واقتصادية في أوروبا وما صاحبها من إفرازات لأفكار وفلسفات وقيَم، وما شهده العالم من سيطرة واستعمار أوروبي.

وقد اتجه الفكر الغربي إلى اتخاذ أوروبا وما حدث بها من تطورات كمعيار للحكم على هذا العصر بأكمله. وقد أتاحت السيطرة التي فرضتها أوروبا على العالم في المجال العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي ابتداءً من هذا العصر وحتى الحرب العالَمية الأُولى (التي أنتجت اقتسام العالم كله تقريبًا بين بضعة دول أوروبية) أن سادت المقُولات الفكرية الأوروبية في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والقانون والاقتصاد بما في ذلك القيَم والمعايير، مما جعل الحديث عن ذلك العصر بأنه عصر النهضة مسألة مفروغًا منها غير قابلة للنقاش.

كما اتجه الفكر الغربي إلى اعتبار الحضارة الغربية ـ بوصفها وريثة هذا العصر، وبكل ما أتى به من اتجاهات وأفكار وقيَم، نموذجًا للتقدم

والعقل، ومركز العالم والحضارة المتقدمة، وممثلة لأرقى أشكال التطور. وبالتالي اعتُبر ما عداها من حضارات وأنماط مجتمعية عناوين للتخلف والجمود وربما حتى البربرية والوحشية. وقد اتجه الاستعمار إلى غرز هذه المفاهيم بين الشعوب المستعمرة إدراكًا منه بأن الاحتلال العسكري والتحكم السياسي والنهب الاقتصادي إجراءات غير كافية لإحكام قبضته وسيطرته، بل إن إقامة أسس لتبعية دائمة شاملة ومقيمة يستلزم ضرب المكوِّنات الثقافية والحضارية في هذه البلاد، وإحلال مكوِّنات أُخرى تشكل أساسًا لهذه التبعية.

ولقد كان هذا الاتجاه أكثر حدة في بلادنا العربية الإسلامية حيث اتجه الاستعمار إلى تحطيم الأسس الإسلامية في عقيدة الشعب وفكره وحضارته وأنماطه المعيشية ونهج حياته، وترويضه لكي ينظر إلى الغرب باعتباره مركز الحضارة المتقدمة، وربط الإسلام والتراث بالتخلف والجمود واللاعقل. وكانت نتيجة ذلك خلق أجيال من المثقفين والسياسيين الذين - حتى وإن طالبوا بإنهاء السيطرة الاستعمارية على بلادنا - يتطلعون إلى الاقتداء بهذا النموذج أو ذاك من الحضارة الغربية. أفليست هي حضارة العلم والعقل والتقدم ومفتاح النهضة والتطور؟ أَوَليست الحضارات تأخذ من بعضها وتتراكم فوق بعضها ضمن مسار واحد؟ إلا أن جميع المشاريع المستغرِبة التي جاء بها هؤلاء باءت بالفشل؛ لأنها كانت في أساسها مشاريع منفصلة عن الشعوب التي تكونت مقوماتها الأساسية من خلال الإسلام والتراث والتاريخ، وبالتالي أصبحت غير قادرة على إقناعهم وتحريكهم، وبالتالي استمرت التبعية، وإن تغيرت ألوانها وتعددت مظاهرها وأشكالها.

ولكن التحرر الحقيقي من التبعية وتحقيق النهضة لبلادنا يأتي من خلال التخلص من المسلَّمات التي فرضها علينا الغرب عن حضارته وأفكاره وقيَمه، ولن يتأتى ذلك إلا بالعودة إلى «عصر النهضة» والسؤال هل كان هذا العصر عصر نهضة وتنوير بالفعل؟ وما هو المعيار للحكم على عصر من العصور إن كان يمثل ظلامًا أم نورًا، تأخرًا أم تقدمًا؟ وهل ما تبلور في ذلك العصر من أفكار وفلسفات وقيَم ونهج في الحياة، وما

تتضمنه من رؤية خاصة للكون وللإنسان وللطبيعة، وما حدده من أهداف واتجاهات: هل بالفعل يمثل العقل والتقدم؟ وهل يقدم حقًّا للعالم نموذجًا جديرًا بالاقتداء؟ وهل تصح مقُولة إن الحضارات تتفاعل وتتراكم في مسار واحد؟ وهل الإسلام والحضارة الإسلامية بعيدان عن العقل والتطور أم يقدمان فكرًا ونهجًا في الحياة يحقق جميع احتياجات وأهداف الإنسان والبشرية في إطار توازن وعدل؟ هذا ما سنراه معًا فيما يلي:

١ ـ في تقويم عصر النهضة

أ ـ النظرة الأحادية للتاريخ

الفكر الغربي يتحدث عن «عصر النهضة» على أنه عصر انعتاق الإنسان والعقل من عهود الظلم والجهل والأغلال، عصر الانتقال من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث، عصر الخلاص من عهد القِنانة والانتقال إلى عصر المساواة المواطِنية، ومن عهد محاكم التفتيش والحجر على العقول وسيطرة الكنيسة وقمع العلماء إلى عهد الحرية معتقَدًا وتعبيرًا، ومن عهد الحكم المطلق إلى عهد الحكم البرلماني الليبرالي الديمقراطي وإلى عصر الثورة البرچوازية ومن البلاد المجَّزأة إلى الوحدة القومية.

ولكن اتخاذ أوروبا كمعيار للحكم على هذا العصر بأكمله هو اتجاه يتسم بالجزئية والنظرة الأحادية وهو أبعد ما يكون عن العلم أو العدل أو الحق؛ لأنه يتجاهل تمامًا ما حل بسائر شعوب وبلاد العالم. فلا يجوز أن تكون بعض الدول الأوروبية معيارًا للحكم، ويُضرب بالأكثرية عرض الحائط، أو أن يقاس العالم بأوروبا أو أن تصبح أوروبا هي العالم.

أما إذا نظرنا إلى هذا العصر نظْرةً شمولية وعالَمية واتخذنا العالم بأكمله كمعيار للحكم سنرى أنه ـ على عكس ما أشاع الفكر الغربي ـ كان عصر رِدَّة وانحطاط، عصر الظلمات والاستعباد والطاغوت، فكيف كان ذلك؟.

لقد بدأت التحولات والتغييرات التي حدثت في الوضع الأوروبي في أواخر القرن الخامس عشر إثر اكتشاف الطريق إلى الأمريكتين، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند والصين، وبالتالي فُتح الباب على مصراعيه لخروج أوروبا من عُزلتها ومن قارتها الفقيرة للسيطرة على أجزاء كبيرة من العالم، واستعمار بلاد آسيا وأفريقيا، واستيطان واستعمار الأمريكتين، وقد صاحب هذه الاندفاعة إلى الخارج عمليات استعباد وإبادة لملايين من الأفارقة في إفريقية والهنود الحمر في الأمريكتين وعمليات نهب لثروات بلاد آسيا وأفريقيا، وقهر وإذلال وإرهاب شعوبها، وتحطيم حضارتهم وثقافتهم، وإخضاعهم لحالة دون حالة الأقْنان في العصور الإقطاعية الأوروبية.

وقد تطلّب هذا التوسع الاستعماري، بكل ما يعنيه من سلب للثروات العالَمية وحشد للقوى العسكرية، تطلّب إعادة ترتيب البيت من الداخل لكي يستجيب إلى مقتضيات تحقيق السيطرة العالمية. وكان ترتيب البيت يقتضي إزالة العراقيل التي تقف دون حركة التوسع والاستيطان والسيطرة الاستعمارية، وعلى سبيل المثال كان لابد من إزالة العراقيل التي أقامها الإقطاع دون تنقل الفلاحين الأوروبيين وسفرهم وتجنيدهم. وقد قضى كل هذا بضرورة الخلاص من نظام الإقطاع (القِنانة)؛ لأن التوسع الخارجي يتطلب التعامل مع مواطنين أحرار. كما أتاح تراكم الثروات الذي تحقق عبر عمليات القرصنة والنهب من الخارج، أتاح فرصة تحريك عجلة الإنتاج الداخلي، وخلق الحاجة للتطوير العلمي، وخاصة في مجال الصناعات الحربية والسلع التجارية.

إذن فقد كان اعتبار السيطرة على الخارج هو المحرك الرئيسي لما حدث من تغيرات داخل أوروبا، على عكس ما تذهب إليه التفسيرات الغربية لتاريخ الحضارة الأوروبية، والتي اعتبرت أن التطور الداخلي هو الذي أفرز السيطرة الخارجية، وأن ما جاء من أفكار ونظريات وفلسفات وتطورات علمية جاء استجابة لحاجات هذا التطور الداخلي فقط. بل إن الاندفاعة إلى الخارج سبقت أيًا من التغيرات التي توضع كعلامات لعصر النهضة (ثورة كروميل في إنجلترا، الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية)

كما سبقت الاختراعات العلمية التي طورت أدوات الإنتاج، وتكوُّن الرأسمالية والثورة الصناعية.

ب ـ البعد عن التوازن والعقل

كما أن ما قدمه ذلك العصر من نظريات وفلسفات وعلوم إنسانية صبت في خدمة التعبئة العامة الأوروبية للسيطرة على العالم، واقتسامه، وفي تسويغ إبادة الشعوب واستعبادها وأسهم في تدمير عقائدها وحضارتها وقيمها وتراثها، فلقد تبنت الحضارة الغربية كهدف أول في الحياة السعي لتحقيق أقصى درجات الرَّفاه المادي، وأقصى مستويات الثروة والقوة المادية، وترتب على ذلك نهج كامل في التفكير والحياة وبناء العلاقات. فاعتبرت التقدم الماديَّ ـ ضمن أبعاده المتعلقة بالعلوم والتقنيات والقوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ـ المعيار الأساسيَّ للحكم على مفهوم التقدم أو التأخر. أما القيَم الروحية والأخلاقية والمبدئية، ونوع العلاقات فيما بين الناس أو الشعوب، فهذه ليست معيارًا لمقولة التقدم أو التأخر، ولا يصح إلا احترام القيَم السياسية والأخلاقية التي تخدم ذلك (التقدم المادي) أما ما عداها من قيم فهي ليست جديرة إلا بالاحتقار. وترى هذه الحضارة أن مصطلحات مثل «الحق» و«العدل» و«الظلم» و«الضلال» مصطلحات متغيرة المتحوى والمدلول وفق الزمان والمكان أو بالأحرى وفق التقدم والتخلف. أي يصبح ما هو تقدم حقًّا وعدلاً، وما هو تخلف ضلالاً وظلمًا. وبهذا لا يكون مصطلح التقدم أو التخلف مجرد معيار يُوَصِّف بعض الحالات، وإنما يشكل معيارًا «للمشروعية» و«للحق» و«العدل»، وهي بالتالي تضع النموذج الغربي ليس فقط كنموذج التقدم ولكن كنموذج الحق والعدل، مما يسوغ بدوره سياسات الاستعمار واضطهاد الشعوب، واقتحام وهدم المجتمعات الآسيوية والأفريقية «المتخلفة» «المستبدة»، وحكمها بالحديد والنار، وسلب حقوقها وثرواتها وحريتها؛ مادام ذلك سيكون مدخلها إلى جنة الحضارة «المتقدمة» التي هي حضارة الغرب.

وقد كانت هناك مقولات أكثر مباشرة في التعبير عن حاجات التوسع والسيطرة على العالم مثل تلك التي استندت إلى نظريات الأجناس

والدماء، وتفوق الجنس الأبيض، وحقه في السيطرة على المتوحشين.

إذن لقد سوغ عصر «العقل» استعباد الشعوب وإبادتها، واعتبر الشعوب الأخرى غير الأوروبية من درجة أدنى تنزل منزل الوحشية والبربرية. وتقبل أشد أشكال التحلل من الأخلاق والمبادئ في سبيل التقدم المادي. فهل هذا هو «العقل» و«العقلانية»؟.

وقد تضمن هذا السعيُ المحمومُ لتحقيق أقصى درجات الرَّفاه المادي والسيطرة رفضَ مبدأ التوازن بين مختلف الاحتياجات والأهداف الأساسية للإنسان: الروحية والفكرية والنفسية والمادية، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو شعوب العالم، فهذا السعي يسخِّر كل شيء من أجله، ويدوس على كل القيَم والمعايير التي تتعارض معه.

ج ـ عوامل القوة وعوامل الضعف: الطريق إلى الانهيار

ولا انكار في إن هذه الدوافع والأهداف أعطت الحضارة الغربية تلك الحيوية والنشاطية والدِّينمية التي مكنتها من التطور بخطوات سريعة في مجالات العلوم والتقنيات وخاصة المرتبطة بامتلاك القدرات الإنتاجية والعسكرية اللازمة لفرض السيطرة ومن تعويض ضعفها البشري بالمقارنة بالبلدان الأخرى في العالم من خلال قدرة عالية على التنظيم والحشد المكثف للقوى المادية والثروات وللقوى العسكرية. كما استطاعت جذب الكثيرين إلى فَلك المجتمعات والعقلية الاستهلاكية من خلال القوة البراقة والجذابة للسلع الاستهلاكية. كما استطاعت حل الكثير من مشاكلها الداخلية والسيطرة على قطاعات من الشعوب المستضعفة من خلال تشجيع النوازع الغريزية والبهيمية من جنس وسكْر ومخدرات وانفلات أخلاقي.

وبالرغم من أن هذه العوامل تمثل مصادر القوة في الحضارة الغربية والتي مكنتها من فرض سيطرتها عل العديد من شعوب العالم إلا إنها تمثل في ذات الوقت مصدر ضعفها وانهيارها في نهاية المطاف.

فالبعد عن التوجه الشمولي المتوازن يؤدي إلى تآكل داخلي وصراع خارجي لا ينتهي إلا بدمار هذه الحضارة. فحياة الفرد في هذه الحضارة

أسيرة الركض وراء الثروة والقوة والتوسع وهي حياة تفتقر إلى التوازن مع الداخل ومع الخارج أي تفتقر إلى ما يسمى في الإسلام سكينة النفس والطمأنينة ويفتقر الفرد إلى التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقر إلى التوازن في علاقاته مع الجماعة. وما ينتج عن ذلك من انتشار الأمراض النفسية والجريمة والانحلال والفساد يؤدي إلى ضعف داخلي شديد يجعل هذه الحضارة غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها. كما أن صراع المجتمعات الغربية فيما بينها على امتلاك القوة والسيطرة والثروة من ناحية، وصراعها مع شعوب الأغلبية المظلومة صاحبة الحق من ناحية أُخرى يؤدي إلى الإسراع بالتآكل الداخلي والانهيار في نهاية المطاف.

إذن فاتخاذ معيار شمولي للحكم على «عصر النهضة» يقودنا إلى إقرار أنه لم يكن عصر نهضة بل عصر انطلاق الاستعمار الأبيض من بلاده لاستعمار العالم، كان عصر نهضة لقلةٍ عملت على فرض عصر ظلام طويل على العالم كله. لم يكن عصر «عقل» فهو عصر اتجه إلى صياغة مقولات سوَّغت الجرائم الجماعية ضد شعوب العالم، هو عصر ابتعد عن التوازن السليم في حياة الإنسان والمجتمعات واتبع نهجًا في الحياة والتفكير يحمل في طياته عوامل فناء الحضارة الغربية نفسها.

إذن فلا يجوز أبدًا أن يكون نمَط الحضارة الغربية القدوة لمجموع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب نفسها الآخذة به في نهاية المطاف لأنه النمَط الذي يهدد الوجود الإنساني بأشدّ المخاطر على مستوى العلاقات والأخلاق والقيم والمعايير وعلى مستوى الوجود البشري نفسه.

٢ ـ في العلاقة بين الحضارات

أ ـ تعدد المسارات

والذين يتمسكون بالحضارة الغربية ويحملون أفكارها ويأخذون منهج حياتها يستندون أيضًا إلى مقولة أن الحضارات تقوم على بعضها، فما من حضارة تنهض إلا تكون قد أخذت من الحضارات الأخرى وبنَت عليها، وما من حضارة إلا وتتفاعل مع الحضارات الأخرى وتتبادل الإخصاب

وإياها. وهم يرون ضرورة الأخذ بالحضارة الغربية باعتبار أن ذلك هو القانون في نهضة الحضارات، أفلم تقتبس أوروبا إبان نهضتها من الحضارة العربية الإسلامية وتأخذ من علومها؟.

ولكن إذا تأملت تاريخ الحضارات ستجد أن مقولة إن الحضارات تقتبس من بعضها أو تتراكم فوق بعضها أو تأتي محصِّلة لعملية انتقاء من هنا وهناك هي مقولة يجانبها الصواب. فلكل حضارة أساسات تقوم عليها، ومرتكَزات تحدد سِماتها ومسار يمضي ضمن سياق خاص، كما لكل منها قوانينها الداخلية التي تتحكم في حركتها، وفي مختلف جوانبها بما في ذلك عملية صعودها وهبوطها، وما يندلع فوق أرضها وتحت سقفها من صراعات.

فلقد تميز تاريخ البشرية بوجود أكثر من مسار تاريخي لحركة المجمعات الإنسانية وبوجود فروق جوهرية بين نمَط حضاري وآخر، وذلك نتيجة مجموعة عوامل وشروط تكونت تاريخيًا في كل نمَط جعلت له سِمات محددة من حيث الاتجاهات الرئيسية التي سادت حياته ومساره، وجعلت السِّمات الأُخرى في مرتبة ثانية أو ثالثة أو جعلها هامشية. مثلاً التوحيد كان هامشيًا في تاريخ الحضارة الفرنجية بينما كان اتجاهًا أساسيًا في الحضارة والنمط المجتمعي الإسلامي. فبالرغم من أن الحضارات قد تتضمن عوامل مشتركة في مكوناتها مثل: الاقتصاد، علاقات اجتماعية، دولة وسلطة، منظومات عقيدية وفكرية وفلسفية، اتجاهات لمسار العلوم والتقنيات، إلا أن ترتيب العوامل من جهة الأولويات يؤدي إلى فروقات نوعية، فيما بينها. فذلك حين يلاحَظ وجود اتجاهات متوازية أو يلاحَظ وجود عوامل مشتركة فهذا لا يعني أننا أمام آلية حركة واحدة أو أمام أنماط واحدة.

وعملية التفاعل بين حضارتين لا تشكل إخصابًا أو اغتِناءً إذا تضمنت اتجاه حضارة إلى ضرب وإضعاف العوامل والاتجاهات الأساسية في الحضارة الأُخرى وإحداث تغيير في ترتيب العوامل والاتجاهات من جهة الأولويات والأدوار، فهذا يؤدي بدوره إلى تغيير جوهري في النمط

الحضاري بأسره. والتفاعل هنا يكون بمثابة الاجتياح والانتقال من سكة إلى أُخرى. وهذا النمط من التفاعل هو ما يحدث بالفعل في بلادنا من اجتياح الحضارة الغربية وصرْف بلادنا عن سكَّتها الإسلامية.

ب ـ النهضة الأوروبية والحضارة الإسلامية: علاقة إخصاب واغتناء

أما الذين يستندون إلى ما أخذته أوروبا إبان نهضتها من الحضارة الإسلامية لدعم دعوتهم للاقتباس من الغرب، فهم يتجاهلون حقيقة أن هذا النمط من التفاعل بين الحضارتين اتّسم بالإخصاب والاغتناء حيث لم يحدث أي تغيير في أولويات العوامل والاتجاهات المكونة للحضارة الغربية، ولم تخرج عن سكَّتها بل لا يكاد يوجد أثر لحضارّة الإسلام فيها بعد كل ذلك التفاعل.

فإذا نظرنا مثلاً إلى ما يأخذه الغرب من طب ابن سينا، سنجد أنهم أخذوا بعض القوانين العلمية وبعض التقنيات والمنْجزات الطبية ولكنهم حددوا لأنفسهم نهجًا طبيًّا آخر تمامًا بعيدًا عن نهج ابن سينا، فطب ابن سينا أو الرازي كان ينطلق من وحدة الفرد والمجتمع والروح والعقل والجسد والطبيعة والبيئة، وكان يعالج الأمراض في ظل هذه الوحدة، بينما ذهب الطب في الغرب باتجاهات وَحيدة الجانب وأحدثت طلاقًا بين تلك الجوانب التي كان يراها ابن سينا والرازي موحدة.

أما في مجال الفلسفة فيتحدث الكثيرون عن اقتباس الغرب من ابن رشد. ولكن إذا تأملنا ما يأخذه الغرب فعلاً من ابن رشد سنجد أنهم أخذوا الجانب الأرِسطي الإغريقي، ورمَوا بعيدًا بكل ما هو وليد الحضارة الإسلامية. لذلك لم تشكل فلسفة النهضة الأوروبية وتطوراتها حتى الآن تواصلات مع ابن رشد أو الرازي أو ابن سينا، وإنما تواصلت مباشرة مع الفلسفة الأغريقية وسارت ضمن خطوط تختلف تمامًا عن الخطوط التي سارت عليها الفلسفة في ظل الحضارة الإسلامية.

ج ـ العلوم والتقنية والنَّسق الحضاري ترابُط عضوي

والذين ينادون بأخذ العلوم والتقنية من الغرب استنادًا إلى أنها مشاعًا

إنسانيًا، وكالشعلة التي تنتقل من يد إلى أُخرى يُغفلون هذه الرابطة العضوية بين العلوم والتقنية من جهة، والنسق الحضاري بأسْره من جهة أُخرى، وما يتضمنه من أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية واتجاهات فكرية. فإغفال هذه الرابطة يجعل استيراد العلوم والتقنية مدخلاً للتبعية بدلاً من أن تكون مصدرًا للاستقلال.

ففي الحضارة الغربية يتم تحديد اتجاه العلوم والتقنيات عن طريق بضع دول تريد السيطرة على العالم وإخضاعه لها ولخدمة الأقلية الحاكمة المرفَّهة داخل هذه البلاد. وبالتالي اتجه التطور العلمي والتقني إلى المجالات العسكرية، وإلى خدمة الأقلية، والتركيز على المنتجات الاستهلاكية سعيًا وراء الربح مع إهمال الاحتياجات الأساسية للمجموع الإنساني العالَمي. كما اتجه نحو التضاد مع الطبيعة والبيئة والحاجات الفطرية للإنسان مما أدى إلى تلوث وإنهاك البيئة وتعريض الكثير من الموارد الطبيعية والحيوانية للفناء ووضع الكائن البشري في ظروف سكنية ومعيشية وصحية تتناقض مع روحه ونفسيته وفطرته ونموه العام.

فإلى جانب ما ينطوي عليه الأخذ بالعلوم والتقنية الغربية من تبعية، فهو يمثل أيضًا الأخذ بنَسق مدمِّر للطبيعة والإنسان.

إذن فالتفاعل السليم مع الحضارة الغربية يجب ألا يتم إلا من خلال اختيار ووضع ما نأخذه منها ضمن خصوصية نسقِنا الحضاري لتُلبي دوافعه ومصالحه وحاجاته وأهدافه.

٣ ـ النَّسق الحضاري الإسلامي: نَسق عقل وتوازن

أ ـ نسق عقل

يتجه الذين يضعون أنفسهم في مواجهة الإسلام والحضارة الإسلامية إلى اتهام الإسلام باللاعقل وهم يستندون في ذلك إلى أن الإسلام يستند إلى الإيمان والوحي والمعتقدات والمسلَّمات بينما المذاهب «العقلية» لا تستند إلا إلى العقل وما يُقبل وما يُرفض. وهم يستندون أيضًا إلى التجربة التاريخية الأوروبية ويسحبون صورة الكنيسة الكاثوليكية على

الإسلام ويعتبرون المعركة الدائرة هنا امتدادًا للمعركة التي دارت هناك.

أولاً: إنَّ كل صراع هو صراع بين أناس يستخدمون عقولهم فكل إنسان أو مُتحاور له عقل ويرى ما يحمله مقبولاً بالنسبة إلى العقل السليم ويراه منطقيًا وسديدًا بينما قد يرى أفكار خصمه متناقضة غير مقبولة من العقل السليم. فالصراع بين المتحاورين هو صراع فيما بين مقولات يحمل كلًّا منها عقل محدد، هو صراع بين عقل وعقل. إذن فالصراع الدائر بين الإسلام ومن يضعون أنفسهم في مواجهته ليس صراعًا بين العقل واللاعقل ولكن بين العقل الإسلامي والعقل الآخر.

ثانيًا: استناد الإسلام إلى الوحي والإيمان لا يُشكل فارقًا في العقلانية لأن الآخذين بالوحي يروْن ذلك في أعلى درجات العقلانية. فالإيمان بالوحي لا يأتي إلا من خلال منهج فكري محدد يقبله العقل ولا يمكن أن يأخذ به مؤمن إلا إذا قبل به عقله ووجد له المسوِّغات الأمر الذي يجعل الفصل بينه وبين العقل أمرًا تعسفيًا من جهة وغير واقعي من جهة أُخرى، ذلك لأن الإيمان هو قناعة بصحة حقيقة ما مرفوعة إلى مستوى أرقى، أما الذي يكون قد تغير حين ترفع تلك القناعة إلى ذلك المستوى فهو تحوُّلها إلى مستوى المسلَّمة التي لا تقبل نقاشًا. وهذا لا يلغي العقل أبدًا، فيمكن العودة عند الضرورة مرة أُخرى إلى مناقشة الأدلة والبراهين كلما وهَن الإيمان وكلما حدث شك أو اقتضت ذلك مستلزمات جدال محدد.

ثالثًا: من الخطأ سحب ما حدث في التجربة الأوروبية على ما يحدث عندنا هنا فلا تشابه بين المتصارعين هناك والمتصارعين في ساحتنا، فلا الكنيسة الكاثوليكية هي الإسلام ولا الأهداف التي حملتها مشاريع التغيير هناك هي الأهداف التي تتطلع أمتنا إلى حملها. ذلك إلى جانب أن «عصر العقل» كما رأينا اتسم بأشد أشكال التحلُّل من الأخلاق والمبادئ مما دفع الكثيرين من أهل حضارة «العقل والعقلانية والعلوم والعَلمانية» أن يروا في تلك الحضارة احتقارًا للعقل وتحطيمًا للعالم.

إذن فالمطلوب هو مناقشة مقولات الإسلام بحد ذاتها، وهذا ما يقرر

العقلانية واللاعقلانية ويقرر العلم واللاعلم، أما الحكم المسبَق بأن الدين يخالف العقل والعلم فهذا حكم مسْبق يحكم على المقولات دون تفحصها في حد ذاتها.

ب ـ نسْق توازن

والحضارة الإسلامية تقدم رؤية ونظرة شاملة ومتوازنة لمختلف الحاجات والأهداف الأساسية للإنسان سواء الروحية أو الفكرية أو النفسية أو المادية. ففكرة التوحيد التي تمثل الاتجاه الأساسي في الحضارة الإسلامية، تقضي بأن يُقام توازن دقيق بين مختلف حاجات الإنسان ومتطلباته، ومختلف حاجات المجموعة البشرية ومتطلبَّاتها بكل ما تحمله تلك الحاجات والمتطلَّبات من تناقضات فيما بينها، وما يمكن أن ينشأ عنها من صراعات ونزاعات. فهناك الحاجات الروحية والنفْسية والإنسانية، وهناك الحاجات المعرفية والعلمية والأدبية وهناك الحاجات المادية على اختلافها وتنوعها، ثم هناك مجموع الأفراد وحاجاتهم المتباينة كما أنَّ هناك شعوب العالم المختلفة. فإذا كان المطلوب أن يوجد ذلك كله ضمن توازن لا يلغي حاجة من الحاجات والمتطلبات الفطرية الضرورية، ولا يكبت أية حاجة كبتًا ويقهرها قهرًا كما لا يتمادى بتلبية إحداها تماديًا ويبالغ في اشباعها مبالغة قصوى، فهذا يعني أن نهج الإسلام التوحيدي يقتضي إقامة نظام دقيق من العلاقات يحكمه العدل والحق ونظام يبني توازنًا دقيقًا حساسًا مرهفًا يسمح للفرد أن يتوازن في داخله ويتوازن مع الطبيعة والفطرة ومع من حوله من الناس فتتناسق وتتكامل حاجاته المختلفة وتشبع وتتكامل رغباته بقدْر عادل ومعقول. ونفس الشيء بالنسبة لخلق توازن بين أفراد الجماعة وبين الجماعات وبعضها. فالوصول إلى هذا المستوى الأعلى من التوحيد بين كل هذه هو الهدف الذي يسعى الإسلام إلى الوصول إليه.

وهذا الهدف هو معيار التقدم والتأخر ويحدد مسار الاتجاهات الإيمانية والروحية والخلقية والعلمية والتقنية والإنتاجية والعسكرية. وإذا كان هذا النمَط المجتمعي يتحرك إلى الأمام بشكل متوازن وشمولي فهذا لا

يسمح بأن يصبح حشد القوة العسكرية، والتطوير التقْني والركض وراء الثراء والأرباح الطائلة، وأقصى الرَّفاه المادي الهدف الأول للحياة وإنما تدخل هذه ضمن التحرك العام الشامل. وهذا ما يَحرم هذا النمط المجتمعي من استباحة كل شيء في سبيل القوة المادية والرَّفاه المادي والسيطرة على الآخرين. وهذا يعني أن يمضي التطور العلمي والتقني بوَتائر أقل، وهذا خيار لا عيب فيه ما دام الخيار المقابل يحمل كل العيوب التي مر ذكرها؛ بل هذا التوازن في الحركة يعطي بمجموعه وفي محصَّلته مصدر قوة هائلة حتى بمقياس القوة المادية.

ج ـ نسَق حق وعدل

وثمة ظاهرة خاصة عرفها التاريخ الإسلامي تمثلت في العلاقة بين الحاكم والمحكوم والشرع الإسلامي. فالإسلام يأمر بالعدل بين الناس والشعوب، وبضرورة مقاومة الظلم واجتناب الفسق. فالحاكم في الإسلام مقيد بالشرع الإسلامي، ولا يملك الحق في سن القوانين التي يريدها، وهذا على خلاف الحال في التجربة الأوروبية حين كانت الطبقة الحاكمة تسن القوانين التي تناسب مصالحها، وتعطي لتلك القوانين صفة الشرعية والقُدسية، وكانت تتبدل هذه العملية مع تبدل الحاكم أو الطبقة المسيطرة، أما في التجربة التاريخية الإسلامية فقد حرِم الحاكم أو الفئات المنفذة من هذا الحق الأمر الذي ولَّد صراعًا دائمًا بين الشرع الإسلامي والطغيان؛ بل بين الشرع وكل محاولة من قِبل القوى الحاكمة للخروج على مقتضيات الشرع. هذا ما يدفع الحاكم إلى تشجيع الاتجاهات التي تحاول الخروج على الشرع تحت دعاوي تحكيم العقل والعقلانية، وذلك من أجل الخلاص من الشروط التي يفرضها الشرع على الحاكم مثل التقوى والعدل والنزاهة والتقشف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

د ـ نقطة الضعف: الصراع بين التوازن والطغيان

وهذا يقودنا إلى نقطة الضعف الأساسية الكامنة في هذا النمط المجْتمعي، وهي ذلك الصراع الناشئ في داخله، والقائم خارجه ضد الاتجاهات التي تنزِع إلى السيطرة الطاغية على الجوانب الأُخرى، ومن ثَم

تسعى إلى الخروج عن تلك الوحدة وتمزيقها، وذلك حين تسود اتجاهات الطغيان، والسعي إلى التسلط وإلى الثروة والغرق في الثراء والفسق بدلاً من التوازن داخل الوَحدة الإسلامية. فإذا ترتب عن ذلك الصراع طغيان هذا الجانب أو ذاك بشكل يفسد العدل والوحدة القائمة، فذلك يعني أن يفقد هذا النمط المجتمعي نقطة قوته المركزية فيقع فريسة للتجزئة والعجز والضعف، دون أن يكتسب تلك القوة التي يوفرها النمط المجتمعي الأوروبي حين تطغَي جوانب العنف الظالم، والسعي المحموم إلى السيطرة. وذلك لأن قاعدة هذا النمط المجتمعي (الشعب وأفكاره ومؤسساته القاعدية) المتمسكة بالإسلام ـ بهذا القدر أو ذاك ـ لا تشكِّل القاعدة المهيأة للاندفاع وراء تلك الاتجاهات الطاغوتية ودعمها، مما يخلق انفصامًا داخليًا عميقًا بين السلطة وفئات واسعة من الناس.

إذًا فالحكم على فترةٍ ما في التاريخ وعصرٍ ما يتوقف على المعيار الذي نحدده لقياس تلك الفترة. وهذا المعيار يتحدد وفقًا للأرض التي نقف عليها، والتي تمنحنا الهدف والمنهج والرؤية. فالذين يقفزون على أرض الغرب حضارةً وثقافةً وفكرًا لن يرَوا التجربة الغربية أو واقعنا التاريخي إلا عبْر المنظار الغربي، ولن يدركوا التحيز في الرؤية الغربية ومدى بعدها عن العلم، وما يقوم عليه النسق الحضاري الغربي ـ وريث «عصر النهضة» ـ من مقومات الطغيان والاستبداد والعنصرية والسيطرة والظلم، وما يتضمنه من اتجاهات معادية للشعوب والإنسانية، بعيدة كل البعد عن العقل أو الحرية أو المساواة والإخاء. والنسْق الحضاري الإسلامي وما يقدمه من رؤية شمولية ومتوازنة للإنسان وللكون ولله وللطبيعة يمثل الأرض التي يجب أن يقف عليها من يسعى حقًّا إلى نهضة بلادنا وتحرُّرها من التبعية والسيطرة الغربية، ومن يسعى إلى سيادة مِنهج الحق والعدل والعقل.

ويجب ألا يكون انكسار الحضارة الإسلامية أمامَ الأوروبية العنيفة المتفوقة سببًا للانبهار أو الإمساك أكثر فأكثر بالحضارة الغربية وطريق الضلالة، ولكن يجب أن تكون سببًا لإدراك مكامن القوة والضعف في الحضارتين، وما تقدمه كلٌّ منها من نهج في الحياة، وآثاره في الإنسان

ووجوده، وفي مستوى العلاقات والأخلاق والقيَم والمعايير، وضرورة العودة إلى الأخذ بالأسباب التي تصنع القوة في النمط المجتمعي الإسلامي وتذهب عنه ما يعانيه من أسباب الضعف.

* * *

obeikan.com